كتب چون ستيوارت مل رسالته هذه ليستنكر فيها استرقاق المرأة بالحجة المنطقية وشواهد الواقع من — بوادر زمانه . وكانت المرأة أشبه شيء بالرقيق من الوجهتين القانونية والدستورية حين كتب هذه الرسالة ، لأنها كانت تحرم حقوق التعامل الحر فى معظم البلاد الغربية ، ولم يكن لها كثير ولا قليل من الحقوق الدستورية فى تلك البلاد .

فكتب فيلسوف الديمقراطية رسالته هذه ليطلب لها المساواة التامة فى حقوق التقاضى والتشريع ، أو فى حقوق القانون والدستور على العموم .

ولم يبن الفيلسوف دعوته على نفى الفوارق بين الرجل والمرأة ، لأنه يتكلم فى الرسالة عن الرجل كأنه أقوى الجنسين . ولكنه كان يستنكر فى عصر الحرية أن تبنى الحقوق الاجتماعية على أساس القوة ولو اعتذر المعتذرون لذلك باسم المصلحة العامة ، ويضرب المثل بالمصلحة العامة فى زراعة القطن واسترقاق العبيد ، فليس من الجائز أن يقال أن المصلحة العامة تستلزم زراعة القطن ، وأن الرجل الأبيض لا يصح أن يترك عمله ليشتغل بهذه الزراعة مع وجود العبيد السود ، فينبغى اذن أن تفرض العبودية على الزراع السود لحماية المصالح القومية التى تتوقف على الزراعة القطنية .

واذا كان هذا الاعتذار باسم المصالح القومية غير مقبول فى عهد الحرية الانسانية ، فليس بالمقبول فى هذا العهد أن يقال أن المعيشة المنزلية مصلحة عامة وأن الرجل لايغنى فيها غناء المرأة ، فينبغى اذن أن تضطر الى المعيشة المنزلية بارادة الجنس الآخر .

ولا ينفى ستيوارت مل فوارق الجنسين غير فارق القوة الجسدية، ولكنه يقول أن توضيح هذه الفوارق ليس بالمستطاع مع بقاء الأحوال الحاضرة على ما هى عليه بين الرجـــال والنساء ، وأن الفوارق التى يتحدث عنها الأطباء لا تصلح اليوم للدلالة على الفوارق النفسية لأن الطبيب مختص بشئون الصحة الجسدية ولا اختصاص له بشئون الفكر والخلق ، وحكمه فيها كحكم غيره من أصحاب الصناعات الأخرى ، فليست أقواله عن فوارق التركيب حجة للقائلين بوجود الفوارق بين الجنسين فى مسائل الأخلاق ومسائل التفكير .

وأيا كان فصل الخطاب فى هذا الخلاف فليس تقرير هذه الفوارق الخلقية أو الفكرية من عمل التشريع ولا من وظيفة القانون . فاذا كان العمل الممنوع مما تعجز عنه المرأة بطبيعة تكوينها فلا معنى لتحريمه عليها بنص القانون ، واذا كان من الأعمال التى تقصر فيها المرأة ويتفوق فيها الرجل فلا معنى كذلك لتقرير الفوارق فيه بالنصوص القانونية ، لأن المنافسة الحرة كفيلة باعطاء كل جنس حقه ورد كل جنس الى مكانه فيما يتعلق بتلك الأعمال . وانما تضار المرأة أكبر الضير فى مصالحتها الخاصة ومصالحها العامة اذا حيل بينها وبين القيام بما تستطيعه من أعمال شتى تقدر عليها كما يقدر عليها الرجل أو أعمال مستقلة هى أقدر عليها منه وعندها من الكفاية الطبيعية لها ما ليس ميسورا لديه .. فاذا ارتفعت عنها قيود الفوارق المفروضة بنصوص القانون والدستور ظهرت كفايتها هذه ولم يدع الأمر الى وضع الحدود التى تبين مدى الفوارق فى سائر الكفايات ، لأن تبينها سيتم لا محالة بحكم الطبيعة أو بحكم التجربة العملية فى الحياة العامة .

وقد خطر لنقاد « مل » أنه استرسل فى الدعوة الى المساواة التامة بين الجنسين بتأثير حبه العميق لقرينته الفاضلة « هارت هاردى » التى عرفت باسم مسز تيلر وتزوج منها مل وهو فى الخامسة والأربعين وقال عنها أنها أعظم منه ومن كارليل صديقه الحكيم المشهور ، ولا ينكر (مل)

تأثير زوجته فى صقل أفكاره وتهذيب شعوره ، ولكنه يقول بحق أن قواعد تفكيره قد تأسست وتمكنت قبل التقائه بتلك السيدة الفضلى ، وأن ميله الى مساواة المرأة واشمئزازه من الجور عليها كانا من جملة الأسباب التى حببته الى تلك السيدة وقربت بينها وبينه ودعتها الى استجابة حبه وقبول صداقته — فربما استلهم من حياتهما الزوجية كثيرا من دلائل المساواة والكفاية وكثيرا من حقائق الفوارق بين الرجل والمرأة ، ولكنه جمع الفكرة فى لبابها قبل التقائه بها ، وشرع فى كتابة الرسالة فى سنة ١٨٦١ ، أى بعد وفاتها بسنوات ثلاث ، ولم ينشرها قبل سنة ١٨٦٩ ، اذ كان قد مضى على وفاتها نحو عشر سنوات .

وجلية الأمر أن بواعث العصر التى أوحت الى الفيلسوف آراءه فى الحرية الانسانية هى بعينها تلك البواعث التىأوحت اليه آراءه فى تحرير المرأة والغاء قيودها القانونية . وقد تناول برتراند رسل هذا الموضوع وهو يكتب عن الفيلسوف فى صورته القلمية من الذاكرة ، فقال عن البواعث التى سوغت تلك النظرة الجديدة الى المرأة ما فحواه أنها تتلخص فى الانتقال من النظرة البيولوجية الى النظرة الصناعية قال : « ان الصناعة لا تهتم بالفصول وأدوار العام كما تهتم بها الزراعة ، والديمقراطية قد بدلت شأن الأسر وأضعفت شعور الاستمرار فى السلالة ، وقد كان نابليون يعمل لتوريث ابنه العرش بعد موته ، ولكن لينين وستالين وهتلر لم يشعروا بمثل هذه الرغبة ، وأخال أن الرضى بمساواة المرأة انما تأتى من أنها الآن — لا ينظر اليها على ضوء الفوارق البيولوجية ، ويلاحظ (مل) أن النساء الوحيدات غير المستعبدات فى انجلترا هن أولئك العاملات فى المصانع ، ولا ندرى كيف نسى الملكة فكتوريا فى هذه المناسبة ! ولكنه على صواب فى ملاحظته لأن العمل فى المصنع — خلافا لولادة الأطفال — عمل يساوى عمل الرجال ، ويبدو أن تحرير المرأة ، مهما يبلغ من الاعجاب بفكرته ، هو فى الواقع جزء من تطور اجتماعى واسع يؤكد جانب الصناعة على حساب جانب الزراعة ، كما

يؤكد جانب المصنع على حساب دار الحضانة ، وجانب السلطة على حساب جانب القوت وتدبير المؤنة ، ويخطر لى أن العالم قد تطوح بعيدا فى هذه الناحية ولن يعود الى السواء والاعتدال حتى تعود السمات البيولوجية فى حياة الانسان الى الذاكرة ، ولكننى لا أرى موجبا للاعتقاد بأن عودة هذه السمات الى الاعتبار انما تتحقق بعودة النساء الى الاسترقاق » .

وهذا التعقيب من الفيلسوف المعاصر على آراء أستاذه وصديق أسرته فيلسوف العصر الذاهب هو الفيصل الصادق بين العصرين وبين تقدير آراء ستيوارت مل بالنسبة لما تقدمها وتقدير آرائه هذه بالنسبة لما خلف بعدها .

فمهما يتطرف ستيوارت مل فى مجاراة العوامل الصناعية فهو أصوب رأيا وأصدق حكما من أسلافه المفكرين الذين دارت آراؤهم وأهواؤهم على محور واحد : وهو استرقاق المرأة وحرمانها حقوق القانون والدستور . فلا يمترى اثنان اليوم فى صواب فيلسوف الديمقراطية حين تكون مسألة المرأة مسألة استرقاق أو تحرير .

أما تقدير آراء (مل) بالنسبة لما خلف بعده فهى أحوج ما تكون الى التعديل كلما دعا الأمر الى الرجوع بالعوامل الصناعية الى الاعتدال ، أو الى تذكير العالم بتلك العوامل البيولوجية التى يقول رسل انه أوشك أن ينساها .

ومن الزيغ والانحراف عن طبائع الأشياء أن تبنى حقوق المرأة على أساس التنازع بين ضدين كما بنيت أكثر الحقوق الدستورية التى طال عليها النزاع منذ استهلال عصر الصناعة واشتداد الخلاف بين أصحاب المصانع والصناع وبين مالكى الثروة والأجراء . فانما تستقيم حقوق الجنسين على أساس « توزيع الوظيفة » بينهما ثم على أساس التعاون بينهما فيما يصلح له كل منهما ولا يصلح له الآخر مثل صلاحه أو يستعد

له مثل استعداده ، وكل شركة بين اثنين فانما حدودها مصلحة هذين الاثنين ولا زيادة ما لم تكن فيها مضرة بسواهما . وليست كذلك مصلحة الرجل والمرأة أو مصلحة الجنسين فى شركتهما الاجتماعية . فتلك شركة لها حدودها من مصلحة أخرى أعم وأبقى من مصلحة الشريكين ، وتلك هى الحدود المفروضة على الآباء والأمهات .

عباس محمود العقاد